الطبع و التكلف

تعد قضـــية الطبع و التكلف من القضـــايا النقدية التي حظيت باهتمام النقاد العرب القدامى، و قد أشـار إلى هذه القضـية بشـر بن المعتمر في صـحيفته إذ يقول : " خذ من نفسك ساعة نشاطك و فراغ بالك، وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، و أشرف حسبا، و أحسن في الأسماع، و أحلى في الصدور و أسلم من فاحش الخطإ،و أجلب لكل عين و غرة، من لفظ شـــريف ، و معنى بديع، و اعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول ، بالكد و المطاولة و المجاهدة، و بالتكلف و المعاودة، و مهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، و خفيفا على اللسان سهلا ، و كما خرج من ينبوعه و نجم من معدنه، و إياك و التوعر، فإن التوعر يســـلمك إلى التعقيد و التعقيد هو الـــذي يســـتـــهـــلـــك مـــعـــانـــيـــك، و يشـــين ألفاظك ... فإن أنت تكلفتهما (الشـــعر و النثر) ولم تكن حاذفا مطبوعا ، و لا محكما شـــأنك، بصـــيرا بما عليك و لك، عابك من أنت أقل عيبا منه، و رأى من هو دونك أنه فوقك ، فإن ابتليت بأن تتكلف القول، وتتعاطى الصـنعة، و لم تسـمح لك الطباع في أول وهلة، و تعاصـى عليك بعد إجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضـجر" [1] ، فالطبع عند بشـر معناه القول على السجية والبديهة و الفطرة ، و يكـون ذلك خلال أوقـات خاصة مناسبة تكون فيها النفس مسـتعدة نشـطة مرتاحة غير منشـغلة أو تعبة، أما التكلف فهو الكد و المجاهدة والتعقيد و التوعر .

و يرى الجاحظ أن مذهب المطبوعين هم " الذين تأتيهم المعاني ســـهوا و رهوا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالا " [2] ،و يرى في هذا الصـدد أن "كل شـيء للعرب فإنما هو بديهةو

---

[1] – البيان و التبيين : للجاحظ ، 135/1 – 138 .

[2] – البيان و التبيين : 13/2 .

ارتجال و كأنه إلهام، و ليست هناك معاناة و لا مكابدة، و لا إجالة فكر ولا استعانة ... و كانوا (العرب) أميين لا يكتبون،و مطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر و أكثر" [3] ، فالجاحظ هنا يربط بين الطبع والنزعة الشفهية التي تعتمد على البديهة والارتجال ، ولا مجال للتفكير والروية ، فالطبع عند الجاحظ معناه البديهة و الارتجال و الاقتدار على القول دون معاناة، و التكلف بضد ذلك ، و الجاحظ يجعل مزية " الطبع " للعرب دون غيرهم من الأمم في معرض رده على الشعوبية في كتابه " البيان و التبيين" .

و يرى ابن المدبر أن الكاتب الذي يستأهل أن يسمى كاتبا بليغا، وينسب إلى حرفة الكتابة لشرفها هو " من إذا حاول صيغة كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من ينابيعها، وظهرت من معادنها، و بدرت من مواطنها من غير استكراه و لا اغتصاب " [4] .

و يرى المرزوقي أنه " متى رفض التكلف و التعمل، وخلي الطبع المهذب بالرواية، المدرب في الدراسة لاختياره فاسترسل غير محمول عليه، و لا ممنوع مما يميل إليه أدى من لطافة المعنى، و حلاوة اللفظ، ما يكون صفوا بلا كدر، و لا عفوا بلا جهد ، و ذلك هو الذي يسمي المطبوع ومتى جعل زمام الاختيار بيد التعمل والتكلف عاد الطبع مستخدما متملكا، و أقبلت الأفكار تستحمله أثقالها، و تتردد في قبول ما يؤدى إليها مطالبة له بالإغراب في الصنعة، و تجاوز المألوف إلى البدعة، فجاء مؤداه و أثر التكلف يلوح على صفحاته، و ذلك هو المصنوع" [5].

فالطبع عند المرزوقي يعني الاسترسال على السجية، و الخلو من التكلف و التصنع و أن تكون الألفاظ حلوة، و المعاني لطيفة، أما الصنعة فهي الإعراب ، وتجاوز المألوف المتعارف عليه إلى البدعة، و إن كان الملاحظ أن المرزوقي يقيد " الطبع" بجملة " المهذب

---

[3] – البيان و التبيين : 28/3 .

[4] – الرسالة العذراء : لابن المدبر (ضمن جمهرة رسائل العرب) ، 199/4 .

[5] – شرح ديوان الحماسة : للمرزوقي ، 12/1 .

بالرواية، المدرب في الدراسة"، فهو لا يربط الطبع بالموهبة وحدها ، بل يضيف إليها عناصر أخرى كالثقافة و الممارسة.

و يرى ابن شهيد الأندلسي أن " إصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو، و إنما يقوم بها الطبع مع وزنه من هذين : النحو و الغريب، ومقدار طبع الانسان إنما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على جسمه، كان مطبوعا روحانيا، يطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها، و أروق لبساتها، و من كان جسمه مستوليا على نفسه — من أصل تركيبه– و الغالب على حسه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في الكمال و التمام ، و حسن الرونق و النظام" [6] ، فابن شهيد يرى أن تعليم اللغة بغريبها و نحوها لا يمكن أن يصنع أديبا، و إنما ينبغي أن يكون " الطبع" هو الأساس، ثم يصقل هذا الطبع بالثقافة اللغوية و النحوية ، و يفسر " الطبع" بأنه غلبة النفس على الجسم، فالذي تتغلب نفسه على جسمه يكون مطبوعا روحانيا فترد الصور عنه في هيئة جميلة ، و الذي يتغلب جسمه على روحه تأتي صور الكلام عنده ناقصة في كمالها و رونقها و نظامها ، وهذا التفسير للطبع — على حد تعبير إحسان عباس — تفسير غريب تفرد به ابن شهيد، و لم يرد له نظير عند المشارقة [7] .

و هكذا نلاحظ أن معظم النقاد متفقون على أن المطبوع من الأدباء هو الذي يأتيه القول طوعا دون تكلف أو مشقة، و دون إجهاد لفكره و خياله، و أن المتكلف من الأدباء هو الذي يعمل الفكر، و يستفرغ الجهد، و يكد الذهن، و يتكلف ضروبا من البيان، و ألوانا من البديع، محاولة منه للإتيان بكل ما هو جديد، و ربما يكون مرد هذا إلى اختلاف الأدباء من حيث الموهبة و الطبع، و تفاوتهم من حيث الخبرة و الثقافة.

---

[6] – الذخيرة : لابن بسام ، 1/1 : 231 – 232 .

[7] – تاريخ النقد الأدبي عند العرب : د/ إحسان عباس ، ص : 479 .

و الخطاب الأدبي العربي القديم – قبل العصر العباسي- في معظمه خطاب مطبوع لاعتماد أصحابه على الموهبة والطبع و البديهة و الارتجال ، المناسبة للمرحلة الشفهية التي تمثل البداوة ، كما أشار إلى ذلك الجاحظ في نصه الآنف الذكر، و على العكس من ذلك فإن الخطاب الأدبي بداية من العصر العباسي الذي انتقل فيه العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومن المشافهة إلى الكتابة ، بدأت تغلب عليه الصنعة و التكلف، لأن الأدباء أدخلوا عليه عناصر جديدة في الشكل و المضمون، فاعتمدوا المعاني الفلسفية،و لجأوا إلى الحلي اللفظيةو المعنوية ، و تكلفوا ألوانا من الصور البيانية ، و أنواعا من المحسنات البديعة .

و لا يعني هذا أن الخطاب الأدبي الجاهلي مثلا يخلو من آثار الصنعة ، فقد لاحظنا عليه غلبة " السجع" مثلا كمظهر من مظاهر الصنعة ، ولكنها الصنعة الخفيفة المحببة المتمشية مع الطبع، و التي هي من آثار الفن، و ليست الصنعة المتكلفة، و بالتالي فإن الطبع لا ينفي وجود الصنعة، لأنها من طبيعة الأدب، فكل أدب فيه قدر من الصنعة الطبيعية المتولدة عن الموهبة، فإذا أجهد الأديب فكره، وكد ذهنه، و أتعب مخيلته، و أسرف في استخدام الصور، و تكلف أنواع المحسنات، و بالغ في البحث عن المعاني البعيدة ، و ظهر ذلك على نتاجه الأدبي، وصمناه بالصنعة و التكلف.

و إن كان الملاحظ أيضا أن مفهوم الطبع قد تغير في العصر العباسي، نتيجة للتطور الحضاري وامتزاج الثقافات ، فلم يعد يعني الاستعداد الفطري فقط، و إنما صار يعني الاستعداد الفطري إلى جانب الثقافة و الممارسة و الدربة، و في ذلك يقول الجرجاني : " و ملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف، و رفض التعمل والاسترسال للطبع، و تجنب الحمل عليه و العنف به ، و لست أعني بهذا كل طبع، بل المهذب الذي صقله

الأدب، و شحذته الرواية، و جلته الفطنة، و ألهم الفصل بين الرديء و الجيد، و تصور أمثلة الحسن و القبح" [8].

ونرى معظم النقاد يميلون مع " الطبع" و يمقتون التكلف و التصنع، و يعلن الجاحظ ذلك صراحة حينما يقول : " و مدار اللائمة، و مستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف، و بيانا يمازجه التزيد" [9] ، ويرى أن اسم " المتكلف" لا يوضع إلا في مواضع الذم [10] ، غير أنه يفرق بين التكلف و التنقيح؛ فالتنقيح إنما يعني تخير اللفظ الجيد، أما التكلف فيعني قهر الألفاظ، و اغتصابها حتى تظهر عليها صفة الاستكراه و التعقيد [11] .

أما القاضي الجرجاني فيرى أن "مع التكلف المقت، و للنفس عن التصنع نفرة، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة، و ذهاب الرونق، و إخلاق الديباجة" [12] .

بينما يرى صاحب "البرهان" أن التكلف يفسد الكلام، و أنه ممقوت فنا و شرعا،يقول:"فإن التكلف إذا ظهر في الكلام هجنه،و قبح موقعه،و حسبك من ذم التكلف أن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله–صلى الله عليه و سلم– بالتبرؤ منه فقال: (قل ما أسألكم عليه من أجر ، و ما أنا من المتكلفين) [13].

و الكلام المطبوع أحلى في النفس، و ألذ من الكلام المتكلف المصنوع، و أشد تأثيرا على المتلقين لأنه يخرج من القلب صافيا من غير تصنع أو تكلف، و في ذلك يقول الجاحظ : " و قد علمنا من يفرض الشعر، و يتكلف الأسجاع، و يؤلف المزدوج، و يتقدم في تحبير المنثور، و قد تعمق في المعاني،و تكلف إقامة الوزن، والذي تجود به الطبيعة، و تعطيه النفس سهوا رهوا ، مع قلة لفظه، و عدد هجائه، أحمد أمرا، و أحسن موقعا من القلوب،

---

[8] – الوساطة : للقاضي الجرجاني ، ص : 25 .

[9] – البيان والتبيين : للجاحظ ، 13/1 .

[10] – البيان و التبيين : 18/2 .

[11] – الحيوان : للجاحظ ، 88/1 .

[12] – الوساطة : للجرجاني ، ص : 19 .

[13] – البرهان في وجوه البيان : لابن وهب ، ص : 163 ، و الآية من سورة ص : آية 86 .

من كثير خرج بالكد والعلاج... و الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، و إذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان" [14].

و الكلام الذي يصدر عن طبع أصيل يبدو سهلا واضحا، لأن " سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع،و دماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة، و أنت تجد ذلك ظاهرا في أهل عصرك، و أبناء زمانك، و ترى الجافي الجلف منه م كز الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب، حتى إنك ربما وجدت ألفاظه في صوته و نغمته، و في جرسه و لهجته، و من شأن البداوة أن تحدث ذلك ، و لأجله قال النبي – صلى الله عليه وسلم- : "من بدا جفا" [15] .

وقد ندد أبو هلال العسكري بالتكلف ، وما يؤدي إليه من غموض، وسجل ظاهرة غريبة لاحظها في عصره، و هي ولوع بعض الناس بالكلام المتكلف الذي فيه إبهام وغموض إذ يقول : " و لا خير في المعاني إذا استكرهت قهرا، والألفاظ إذا اجترت قسرا، و لا خير فيما أحيد لفظه إذا سخف معناه، و لا في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى، وظهور المقصد، و قد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ، و يستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة، و جاسية غريبة، و يستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا، و سهلا حلوا ، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبا، و أعز مطلبا، و هو أحسن موقعا، وأعذب مستمعا، و لهذا قيل أجود الكلام السهل الممتنع " [16] ، لذلك عيب في الخطاب النثري الشفهي على الخطباء مثلا التشدق والتقعر لأنهما من مظاهر التكلف [17].

وفي القرن الرابع الهجري اشتد ولوع بعض الأدباء باستعمال السجع و المبالغة فيه، إلى درجة التكلف ، و من ثم انبرى النقاد لمعالجة هذه الظاهرة ، منبهين على خطورة المبالغة في

---

[14] – البيان و التبيين : 28/4 – 29 .

[15] – الوساطة ، ص : 18 .

[16] – الصناعتين : للعسكري ، ص: 75 .

[17] – البيان والتبيين : للجاحظ ، 13/1 ، 271 .

الزخرف و التأنق لأن ذلك من شأنه أن يفرغ الخطاب الأدبي من محتواه و مضمونه، فيغدو مجرد ألاعيب لغوية جوفاء [18] ، غير أن مقولاتهم النقدية في هذا الصـــدد لم يكن لها من التأثير ما يمكن لمسـه على واقع الحال بالنسـبة إلى الخطاب الأدبي ، فقد كانت أقوالهم مجرد صرخة في واد سرعان ما جرفها تيار التكلف العارم، في عصر بلغ فيه التصنع الحضـــاري قمته .

[18] – الصناعتين ، ص: 286 ، و البرهان : لابن وهب ، ص : 165 ، وأخلاق الوزيرين : للتوحيدي ، ص : 134 و كمال البلاغة : لليزدادي ، ص : 17.